

يؤمن الحكمة من يشاء ومن يؤمن
الحكمة فقد أوفى خيراً كثيراً وما
ينكر إلا أولو الألباب

المسحاة

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول
فليؤمنوا حسنه أولئك الذين هداهم
الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان الاسلام صوى و « مناراً » كنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣١٨ - ٦ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٠)

ميزان الايمان وسلم الامر

(أو السلف والخلف في الاسلام *)

الوعد الالهية بنصر المؤمنين وبان الارض يرثها الصالحون . آيات العزة للمؤمنين .
آيات الوعد بحكمة لا تقبل التأويل . صدقها على سلف المسلمين . حالة الاسلام
في الصدر الاول . حال المسلمين اليوم . عدم صدق الآيات عليهم . السبب فيه تغير
ما بانفسهم . ماهو التغير والتغير؟ ما به تقوم الدول والامم . علامة المؤمن الصادق وعلامة
المنافق . الوحدة الاسلامية . حث العلماء على القيام بها .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ
يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »

تلك آيات الكتاب الحكيم . تهدي الى الحق والى طريق مستقيم
ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون . هل يخلف الله وعده وهو اصدق من
وعد واقدر من وفى ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع انبياءه وقلائم ؟

(*) من مقالات العروة الوثقى الحكيمة والفنون لنا

هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؛ نعوذ بالله . هل أنزل الآيات
الينيات لنفواً وعبثاً ؛ هل اقتربت عليه رسله كذباً ؛ هل اختلقوا عليه افكاً ؛
هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها وإشارات لا يدركونها ؛ هل
دعاهم اليه بما لا يعقلون ؛ نستغفر الله . أليس قد أنزل القرآن عربياً غير
ذو عوج وفصل فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء ؛ تقدست صفاته
وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . هو الصادق في وعده ووعيده
ما اتخذ رسولا كذاباً ولا أتى شيئاً عبثاً وما هدانا الا سبيل الرشاد ولا
تبدل آياته نزول السموات والارض ولا يزول حكم من احكام كتابه
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

يقول الله « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها
عبادي الصالحون » ويقول « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » وقال :
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقال : « ليظهره على الدين كله وكفى بالله
شهيداً » هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً . ولا ينال هذه
الآيات بالتأويل الا من ضل عن السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه .
هذا عهده الى هذه الأمة المرحومة ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر
والعزة وعلو الكلمة ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة وما جعل
لمجدها أمداً ولا لعزتها حداً

هذه امة انشاها الله عن قلة ورفع شأنها الى ذروة العلاء حتى ثبتت
اقدامها على قنن الشاىخات ودكت لعظمتها عوالى الراسيات وانشأت لهيبتها
مرائر الضاريات وذابت للرعب منها اعشار القلوب . هال ظهورها الهائل
كل نفس وتمجير فى سببه كل عقل واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا :

قوم كانوا مع الله فكان الله معهم . جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الأسلحة وعدد القتال فاخترقت صنوف الأمم واختطت ديارها ولا دفعها أبراج المجوس وخنادقهم ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ولا عاقها صعوبة الممالك ولا أثر في همها اختلاف الأهوية ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ولا تنوع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها احكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقاب غيرها من الامم في فنون السياسة . كانت تطرق ديار القوم فيحرقون امرها ويستهيون بها وما كان يخطر ببال احد ان هذه الشرفمة القليلة تزعزع اركان تلك الدول المظيمة وتمحو اسماءها من لوح المجد وما كان يختلج بصدر ان هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها وتخضعها لاوامرها وعاداتها وشرائعها لكن كان كل ذلك ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها ما لم تنله امة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوقاهم أجورهم مجداً في الدنيا وسعادة في الآخرة .

هذه الامة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتي مليون من النفوس (*) وارضيا آخذة من المحيط الاطلنطي الى احشاء بلاد الصين تربة طيبة ومنابت خصبة وديار رحبة ومع ذلك نرى بلادها منهوبة واموالها مسلوبة تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعباً شعباً . ويتقاسمون اراضيها

(*) ثبت بالاحصاء الاخير ان المسلمين ثلاثمائة مليون او يزيدون وما في المقالة

كان بحسب الاحصاء السابق

قطعة بعد قطعة ولم يبق لها كلمة تسمع ولا امر يطاع حتى ان الباقيين من ملوكها يصبحون كل يوم في مائة ويمسسون في كربة مدلهمة ضاقت اوتارهم عن سعة الكوارث وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم . هذه هي الامة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياتهن وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف الى تلك الدول الاجنبية . ياللمصيبة ويالللزينة . أليس هذا بخطب جليل ؟ أليس هذا ببلاء نزل ؟ ما سبب هذا الهبوط وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالوعود الالهية ؟ معاذ الله . هل نستئثس من رحمة الله ونظن ان قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله . هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما اكده لنا ؟ حاشاه سبحانه . لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلمنا ان ننظر الى انفسنا ولا لوم لنا الا عليها . ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الامم سنناً متبعة ثم قال « ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

ارشدنا الله تعالى في محكم آياته الى ان الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على اساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزرة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وامن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الامم السابقة والتدبر في احوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة . حادوا عن الاستقامة في الرأي . والصدق في القول والسلامة في الصدور والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام

بنصره والتعاون على حمايته : خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على اعتلاء كلمته
 واتبعوا الاهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية واتوا عظام المنكرات
 خارت عزائمهم فشجوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا
 الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم
 عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الامم ونمائها في التخلي بالفضائل
 التي اشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف
 باختلاف الامم ولا يتبدل بتبدل الاجيال كسنته تعالى في الخلق والايجاد وتقدير
 الارزاق وتحديد الآجال . علينا ان نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر
 اخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان
 هل نحن نقتفي اثر السلف الصالح هل غير الله ما بنا قبل ان نغير ما بانفسنا
 وخالف فينا حكمه وبذل في امرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون بل
 صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الامر وعصيناه من بعد
 ما ارى اسلافنا ما يحبون واعجبتنا كثرتنا فلم تنع عنا شيئاً فبدل عزنا بالذل
 وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية : نبذنا اوامر الله ظهرياً
 واتخاذنا عن نصره فجازانا بسوء اعمالنا ولم يبق لنا سبيل الى النجاة سوى
 التوبة والانابة اليه . كيف لا نلوم انفسنا ونحن نرى الاجانب عنا يقتصبون
 ديارنا ويستذلون اهلنا ويسفكون دماء الابرياء من اخواننا ولا نرى في
 احد منا حراكاً

هذا العدد الوافر والسواد الاعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع
 عن اوطانهم وانفسهم شيئاً من فضول اموالهم يستحبون الحياة الدنيا على
 الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش الف سنة وان كانت غذاؤه الذلة

وكساؤه المسكنة ومسكنه الموان . تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يتقطع ما بيننا لا يحسن اخ لا خيه ولا يهتم جار بأمر جاره ولا يرقب احداً في الآخر إلا ولا ذمة ولا نحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا ننزله بما نبذل من اموالنا وارواحنا حسبما امرنا . يحسب الالبسون لباس المؤمنين ان الله يرضى منهم بما يظهر على اللسنة ولا يمس سواد القلوب ؛ هل يرضى منهم بان يبدوه على حرف فان اصابهم خير اطمأنوا به وان اصابهم فتة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؛ هل ظنوا ان لا يتلى الله ما في صدورهم ولا يحصى ما في قلوبهم ؟ الا يعلمون ان الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؛ هل نسوا ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم للقيام بنصره واعلاء كلمته لا ييخون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس ؛ فهل لمؤمن بعد هذا ان يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان لا بماله ولا بروحه . انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايمانا وثباتا ويقولون في اقدامهم « حسبنا الله ونعم الوكيل » كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم ان المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ممتع بالسعادة الابدية في نعمة من الله ورضوان ؛ كيف يخاف مؤمن من غير الله والله يقول « فلا تخافوهم وخافون انفسهم ان كنتم مؤمنين » فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وسواس الشيطان وليمتحن كل واحد قلبه قبل ان يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين وما جعله من خصائص الايمان فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ان هذه امتبائة واحدة

والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول
الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز واجماع الأمة سلفاً وخلفاً فالنا
نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة ويستولون
عليها دولة بعد دولة والمتسمون بسمة الاسلام آهلون لكل ارض متمكنون
بكل قطر ولا تأخذهم على الدين نبرة ولا تستنزهم للدفاع عنه حية .
ألا يا اهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من
الأوامر والنواهي وتتخذوه اماماً لكم في جميع اعمالكم مع مراعاة الحكمة
في العمل كما كان سلككم الصالح . ألا يا اهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه
« فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض
ينظرون اليك نظار المنشي عليه من الموت » الا تعلمون فيمن نزلت هذه
الآية ؟ نزلت في وصف من لا ايمان لهم . هل يسر مسلماً ان يتناوله
الوصف المشار اليه في الآية الكريمة او غر كثيراً من المدعين للايمان
مازين لهم من سوء اعمالهم وما حسنته لديهم اهواؤهم « أفلا يتدبرون القرآن
ام على قلوب اقفالها » اقول ولا اخشى تكيراً لا يمس الايمان قلب شخص
الا ويكون اول اعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان لا يراعى في ذلك
عذراً ولا تسلة وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة
البعد عن الله

مع هذا كله نقول ان الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا
به نبأ النبوة وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو ان يكون عارضاً يزول
ولو قام العلماء الاتقياء وادوا ما عليهم من النصيحة لله والرسول وللمؤمنين
لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نوراً يبهر الابصار واعمالاً تحار

فِيهَا الْأَفْكَارُ وَإِنَّ الْحُرْكََةَ الَّتِي نَحْسِبُهَا مِنْ نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَغْطَابِ الْأَقْطَارِ هَذِهِ الْيَوْمَ تَبَشِّرُنَا بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ النَّفُوسَ لِصِيحَةٍ حَقٍّ يَجْمَعُ بِهَا كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ وَيُوَحِّدُ بِهَا بَيْنَ جَمِيعِ الْمَوْحِدِينَ وَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ قَرِيبًا قَاتٍ فَعَلِ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ لِلْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَحَّتْ لَهُمُ الْاَوْبَةُ وَنَصَحَتْ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَسَارِعُوا إِلَى هَذَا الْخَيْرِ وَهُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ - جَمْعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ - وَالْفَضْلُ كُلُّ الْفَضْلِ لِمَنْ يَبْدَأُ مِنْهُمْ فِي الْعَمَلِ « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »

(المنار) لَيْسَ الْمُرَادُ بِجَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ وَاحِدٌ وَحُكُومَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ صَرَّحَ صَاحِبُ الْمَقَالَةِ فِي مَقَالَةٍ أُخْرَى بِأَنَّهُ لَا يَفْنَى بِجَمْعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ إِمَامُهُمُ الْحَاكِمُ وَاحِدًا وَقَالَ أَنْ هَذَا رُبَّمَا كَانَ مُتَعَذِّرًا وَإِنَّمَا أَعْنَى أَنْ يَكُونَ إِمَامُهُمُ الْقُرْآنُ . وَلِيُتَبَرَّحَ بِمَا فِي الْمَقَالَةِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى وَجُوبِ الْعَنَاءِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَعْدُونَ أَنْتِظَامَ إِبْنَائِهِمْ فِي سُلُوكِ الْجِهَادِيَّةِ مِنْ أَكْبَرِ الْمَصَائِبِ وَيَحْتَالُونَ فِي الْمُرُوبِ مِنْهَا حَتَّى بِاتْلَافِ بَعْضِ الْأَعْضَاءِ وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَى أَضْرَاحَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِأَنْجَائِهِمْ مِنْ ذَلِكَ فَيَا لِلْفَضِيحَةِ وَيَا لِلْبَعْدِ عَنِ الْإِسْلَامِ . وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأُمَّةٍ أَنْ تَحْفَظَ وَجُودَهَا وَتَصُونَ اسْتِقْلَالَهَا إِلَّا بِالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ وَالْأُمَّةُ الَّتِي لَا قُوَّةَ لَهَا وَلَا اسْتِقْلَالَ تَكُونُ فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ فِي الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ أَوْ فِي الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ النَّافِعَةِ بَلْ لَا يُمْكِنُ دَفْعُ مَصَائِبِ الْحَرْبِ إِلَّا بِالْإِسْتِعْدَادِ الْكَامِلِ لِلْحَرْبِ